مرحلة نشوء المدن في حضارة وادي السند (٣٢٠٠ – ٢٦٠٠ ق.م)

أ.د. نائل حنون
كلية الآثار /جامعة القادسية
م.م. حسين حسن العنزي
كلية الآثار/ جامعة الكوفة

مقدمة:

بعد أن توالت ثقافات ما قبل التاريخ المتشابهة في حضارتي وادي السند ووادي الرافدين كانت الزراعة لآلاف السنين هي عماد الحياة، وصُنِعت الأدوات من الحجر ونادراً ما كانت تصنع من النحاس. وكانت القرى فيها نمط الحياة للاستيطان بشكل عام. وأن التباين البارز الوحيد في تلك السنين بين الثقافتين هو كيفية صنع الفخار وتزيينه[١].

شهد أواخر الألف الرابع وبداية الألف الثالث قبل الميلاد انتشارا واسعا للمدن الزراعية على ضفاف الأنهار ومصباتها حيث كانت الحاضنة الحضارية والحضرية التي ظهرت في جنوب حوض الرافدين وحوض الإندوس[٢] فقد أُنشئت المستوطنات الدائمة في مناطق جديدة من السهول الغرينية من خلال انتقال بعض المجاميع من الأراضي المرتفعة إليها[٣] ، لابد وأن يعكس هذا التحول في الحضارتين التنمية بين سكان الأراضي المرتفعة من تقنية ومعرفة وثقة في استغلال المناطق البيئية الجديدة التي يوفرها حوضا وادي السند ووادي الرافدين والتغلب على محدوديتها[٤].

إنَّ حركة التنقل هذه كانت جزءاً من عملية دائمية فكان الرعاة يسعون وراء المراعي الموسمية التي تمنحهم الألفة مع المناطق الجديدة لمساعدة أقاربهم أو غيرهم من السكان للتحرك واستغلال هذه المناطق في مستوطنات زراعية دائمية[٥].

إنَّ الزراعة في منطقة بلوشستان وشمال وادي الرافدين كانت ممكنة في الوديان النهرية فقط[٦]. ومن الأمور التي ساعدت على الزيادة الكبيرة في

أعداد السكان ونمو المدن في الحضارتين هو الحفاظ على المياه من أجل زيادة الإنتاج الزراعي[٧]، مما دفع سكان المستوطنات إلى بناء سدود بسيطة لحجز أو تحويل المياه المتدفقة خلال فصل الربيع عند ذوبان الثلوج في المرتفعات فتملأ المجاري بالسيول الموسمية[٨]. واستعملت هذه المياه من أجل أرواء الحقول الزراعية في وقت لاحق من العام عندما ترتفع درجات الحرارة وتجف الارض[٩]. لا بد وأن تطلبت تقنية الري هذه تضافر جهد السكان فضلاً عن إلى من ينظم عملهم لكن لسوء الحظ لم يتم التوصل إلى شيء بخصوص أنظمة الحكم في حضارة وادي السند والسبب في ذلك هو عدم التمكن من حل رموز كتابتها حتى اليوم[١٠]. على العكس من حضارة وادي الرافدين تُعد أنظمة الحكم فيها أحدى المقومات الأساسية التي ساعدت على نشوء المدن وتطورها[١١]. إضافة إلى ذلك ساعد زيادة عدد السكان على نمو القرى وأتساعها فضلاً عن الاستيطان في مناطق جديدة[١٢]، سبب ذلك خلق روح التنافس بين السكان على أرض محدودة ومناسبة للزراعة في مناطق متعددة[١٣]. كما أن الأهمية الاقتصادية لتربية الماشية تحتاج إلى الأراضي الصالحة للزراعة من أجل الرعي أو الحصول على العلف من هذه الأراضي في حين إن الأغنام والماعز يمكن أن تُرعى على نباتات الأشجار المنخفضة في أراضٍ غير مزروعة[١٤]. وقد ازدادت الضغوط الاقتصادية مع مرور الوقت بسبب العوامل المناخية، إذ تشير الدراسات إلى أن الألف الرابع قبل الميلاد كان أكثر جفافاً من السنين السابقة، وقد بلغت ذروتها في نحو (٣٢٠٠ – ٣٠٠٠ ق.م)[١٥].

نظراً لما توفره أحواض حضارتي وادي السند (الإندوس وساراسواتي) ووادي الرافدين (دجلة والفرات) من مساحات واسعة من الأراضي الخصبة المروية للزراعة ومساحات أوسع لرعي الحيوانات ساعدت الأنسان على الاستيطان فيها[١٦] ، كما قدمت الأسماك والطيور المائية والقصب مورداً إضافياً فضلاً عن الطين[١٧] والخشب للبناء واستعمال الخشب كوقود للأنشطة المنزلية والصناعية[١٨]. وخلافاً لمركز التنمية الحضرية وادي الفرات وضواحيه فإن وادي الإندوس وضواحيه غني بالموارد المعدنية التي تشمل الصوان في تلال روهري في منطقة السند وخامات النحاس في تلال سيفاليك (شمالي باكستان)[١٩] والعقيق في منطقة كجرات وكذلك الذهب في أعالي نهر الإندوس والحجر الصابوني والنحاس وربما القصدير في منطقة راجستان المجاورة للسند، فضلاً عن الحجر والخامات المعدنية المتوافرة في المنطقة الحدودية

والخامات المعدنية المتوافرة في المنطقة الحدودية الهندية – الإيرانية[٢٠].

وقد تطابقت مناطق حوضي الإندوس والرافدين في سلبيات كبيرة جداً، مثل البعوض الذي يمكن أن يحمل مرض الملاريا والحمى التي كانت كذلك سمة من سمات الحياة في السهول[٢١] ، فضلاً عن الغابات التي تأوي الحيوانات البرية المفترسة والخطرة مثل النمور والثعابين والخنازير والفيلة التي تشكل تهديداً مباشراً على حياة الأنسان[٢٢]. كذلك شَكَلَ عدم استقرار الأنهار مشكلة كبيرة عند سكان حضارتي وادي السند ووادي الرافدين فقد أصبح تهديداً مستمراً من الفيضانات والتغيرات في مسارها وكان لابد من وجود تقنية تهدف إلى الحفاظ على المياه والتعامل مع الفائض منه[٢٣].

المجاميع الإقليمية:

شهدت مرحلة السند المبكرة قدراً كبيراً من التنوع في المنتجات الحرفية ونمواً في التنوع الاقليمي داخل المستوطنات أكبر مما كان في العصور السابقة، لاسيما في أنماط الفخار[٢٤]. وتشير اختلافات الفخار من مناطق مختلفة إلى وجود مجاميع إقليمية بعضها على صله بجماعات في منطقة بلوشستان والتي ربما تعكس الروابط بين الأراضي المرتفعة والمنخفضة (السهول) التي يرتادها الرعاة الرحل موسمياً[٢٥]. ظهرت خلال هذه مرحلة نشوء المدن (٣٢٠٠ – ٢٦٠٠ ق.م) أربع ثقافات رئيسة على التوالي وقد سميت بأسماء مواقعها هي: ثقافات أمري – نال ، كوت ديجي، شوثي– سيسوال ، وثقافة أخرى عُرفت باسم دامب سادات أو(فخار كويتا) في وسط منطقة بلوشستان[٢٦]. إن الامتداد الجغرافي لهذه الثقافات هي مناطق البنجاب، هاريانا، شمالي راجستان، غربي أوتارا براديش وكجرات أيضاً[٢٧]. وتميزت فيما بينها في طريقة صناعة سكان هذه المستوطنات للفخار وغيرها من الأعمال الفنية، ولكن هناك أوجه شبه ثقافية كبيرة بين تلك المجاميع[٢٨]. فقد أقترح البعض بأن تجمعات الفخار الإقليمية هذه يمكن تحديدها بمجاميع عرقية، فمن خلال الاطلاع حول تاريخ حوض الإندوس والمناطق المجاورة اتضح وجود عددٍ من الثقافات في هذه المناطق كانت معاصرة فيما بينها خلال وقت مبكر من الالف الثالث قبل الميلاد [٢٩]. ولمعرفة هذه الثقافات وما تم اكتشافه حولها سنتطرق لكل ثقافة على حدة فضلاً عن أهم التنقيبات التي أجريت في مناطقها:

أولاً– ثقافة أمري – نال (Amri – Nal)

أُطلقت هذه التسمية من قبل عالم الآثار الهندي ماجومدار (N.G.Majumdar) عندما شرع بالتنقيب في موقع أمري جنوبي منطقة السند عام

١٩٢٩م، ثم استُؤنِفت التنقيبات في الموقع من قبل البعثة الفرنسية برئاسة كاسال (J.M.Casal) بين عامي ١٩٥٩ و ١٩٦٢م[٣٠] ، ومن خلال مطابقة المنتجات الفخارية المستكشفة في موقع أمري مع ما وجد في تنقيبات أوريل شتاين (Auriel Stein) في منطقة نال (جنوبي بلوشستان) عام ١٩٢٨م من مواد ما قبل التاريخ تحمل بعض الشبه لمميزات فخار المرحلة الأولى من مستوطنة أمري[٣١]. فقد وجد فخار نال في مناطق جنوبي بلوشستان والسند وكجرات التي تمثل مرحلة الاستيطان البشري الواسع في السهول الغرينية[٣٢] وتُبين هذه المكتشفات أن هناك ارتباطاً وثيقاً مع الحضارات القديمة من وادي الرافدين وإيران[٣٣].

بدأت الاختلافات في التقاليد الحرفية خلال المراحل السابقة التي كانت في أجزاء مختلفة من جنوبي بلوشستان بالتلاشي في المرحلة المبكرة من حضارة وادي السند فقد تشابهت المواد في عموم مناطق حضارة وادي السند[٣٤].

كانت المنتجات الفخارية من أمري ذات لون أحمر أو برتقالي مصقولة، زُينت بأنماط هندسية تنطوي على زخرفة الدوائر والمربعات المتقاطعة والأشرطة فضلاً عن الأشكال النباتية والحيوانية مثل ورق التين الهندي وسعف النخيل والماعز والثيران والأسماك[٣٥]. تكاد تكون مماثلة لما وجد على الأواني الفخارية من دور حلف التي كانت ذات نقوش زاهية بعدة ألوان مثل الأصفر والبرتقالي والأحمر والأسود وقوام زخرفتها الأشكال الهندسية كالمثلثات والمربعات والدوائر، والأشكال الحيوانية والنباتية مثل الأزهار والطيور الحاطة والغزلان ورؤوس الثيران[٣٦]. وشملت أشكال هذه المنتجات التي من موقع أمري جرار ذات عنق طويل وأطباق مفتوحة (ذات ثقوب) ربما كانت من أجل تقديم الفاكهة[٣٧] ، كما تضمنت منتجات أخرى كالخرز والأساور وتماثيل الثور المحدب[٣٨]. أما فخار نال تميز بمجموعة من الأوعية المصقولة زُينت بأنماط تجمع بين عناصر هندسية مرتبة بدقة وحيوانات واقعية[٣٩]. ووجد فخار أمري وفخار نال كلاهما في مواقع جميع أنحاء حضارة وادي السند[٤٠].

استمرت حضارة وادي السند خلال المرحلة المبكرة من نشوء المدن على نمط المرحلة السابقة (ما قبل المدن) في بناء البيوت فقد حُدد نوعان من الهياكل التي بنيت من اللبن في مستوطنة أمري، النوع الأول يماثل ما وجد في قرية العقير من دور العبيد (الثالث والرابع)، إذ بُنيت بيوت صغيرة ومستطيلة الشكل على جانبي الشوارع والأزقة يحتوي البيت الواحد على عدة غرف

صغيرة بمداخل جانبية مع مواقد خارجية[٤١] ، والنوع الثاني هياكل كبيرة ومستطيلة مقسمة إلى غرف صغيرة تُماثل ما وجد في قرية مهرغاره ربما كانت وظيفتها التخزين، غالباً ما كانت أسس هذه الهياكل من الحجر وأُنشئت السقوف بعضها من الخشب والبعض الآخر من القصب والطين[٤٢]. إذ وجدت بقايا محترقة لعوارض خشبية من سقف مائل في نال ليست واضحة ما إذا كانت من بيوت مرحلة السند المبكرة أو الناضجة[٤٣].

أُنشئ عدد من المستوطنات خلال المرحلة المبكرة لحضارة وادي السند في شمالي كجرات منها دولافيرا وبالاكوت إحدى المدن الكبرى لحضارة وادي السند، فقد كانتا يرتبطان بتجارة نشطة مع مدن حضارة وادي الرافدين[٤٤]. احتوت الطبقات المبكرة من الاستيطان في هاتان المدينتان على منتجات فخارية ومعدنية تعود إلى ثقافة أمري – نال[٤٥]. ووجدت في الموقعان الأخريان سركوتادا (Surkotada) وناغوادا شمالي كجرات أيضاً منتجات فخارية حمراء وبرتقالية رسمت بزخارف نباتية وحيوانية مثل ورق التين الهندي، الماعز، الطيور، والثيران، وتضمنت أشكال هذه المنتجات اواني توضع فوق قاعدة وأوعية وأسطوانة تسند جرة كروية وغيرها مما يُشير إلى أن هذه المواقع كانت مرتبطة بفخار نوع أمري – نال[٤٦]. كشَفت التنقيبات في مستوطنات أخرى من المرحلة المبكرة لحضارة وادي السند مثل سومناث (Somnath)، لوتشوار (Loteshwar)، وبادري (Padri) عن فخار مختلف ومتميز عن نوع أمري – نال، أذ يُعد من المهن السابقة في هذه المستوطنات فربما يشير إلى استمرارية ثقافة السكان الأصليين[٤٧]. ووجدت في هذه المستوطنات بقايا هياكل مستطيلة الشكل ذات جدران منخفضة بُني بعضها من اللبن والبعض الآخر من القصب المضفور والطين، وغُطت السقوف بقصب لطخ بالطين، زُودت هذه الهياكل بحفر تخزين ومداخن داخل الغرف[٤٨]. فضلاً عن ذلك وجدت أدلة على صناعة الخرز عُرفت من خلال وجود خرز بمراحل تصنيع مختلفة إلى جانب حفر النار التي أعدت من أجل تسخين المواد الخام وخرز الحجر الرملي[٤٩].

ثانياً– ثقافة كوت ديجي (Kot–Diji):

كشفت أعمال التنقيب التي جَرت في مستوطنة كوت ديجي عام ١٩٤٥ – ١٩٥٥م برئاسة عالم الآثار الباكستاني ف.أ. خان (F.A.Khan) عن أدلة تعود إلى مرحلة السند المبكرة[٥٠]. ونظراً لوجود بقايا مماثلة في مواقع منتشرة على مساحة واسعة من حضارة وادي السند أُطلق عليها اسم ثقافة كوت ديجي[٥١]. وقد تمثلت من خلال التركيز على منطقة وسط وشمال بلوشستان والكثير من المواقع المتناثرة في منطقة كجرات

وفي منطقة السند التي تضم مستوطنة كوت ديجي الواقعة إلى الشرق من مجرى نهر الإندوس وعدد قليل من المواقع في منطقة كويستان[٥٢] ، فضلاً عن ذلك وجدت في أثناء المسوحات الميدانية في أجزاء من منطقة تشولستان مواقع ذات صلة بهذه الثقافة تُبين زيادة في حجمها مما تشير إلى ديمومة الاستيطان البشري إذ استبدلت المخيمات الرعوية بقرى زراعية. ولم يتم تنقيب سوى عدد قليل من هذه المواقع لذا فإن المعلومات التي لدينا حولها محدودة جداً[٥٣].

من المواقع التي احتوت على فخار ثقافة كوت – ديجي موقع كوهتراس بطحي (Kohtras Buthi) الواقع في منطقة بلوشستان والذي تم تنقيبه من قبل ن.ج.ماجومدار بين عامي ١٩٣٠-١٩٣٤م فعُثر فيه على بقايا لجدارين بُنيا من الصخور كانت تُحيط بالمستوطنة ربما تكون دفاعية فقد أمنت المستوطنة من المخاطر الخارجية والفيضانات بشكل جيد[٥٤]. وهناك عدد من المستوطنات ذات حجم كبير منها مستوطنة رحمن دهري الواقعة في وادي غومال شمالي بلوشستان تبلغ مساحتها نحو ١٩ هكتار[٥٥] ، تم تنقيبها من قبل فريق من قسم الآثار / جامعة بيشاور برئاسة فازاند علي دوراني (Fazand Ali Durrani) وجورج أردوزي (George Erdosy) من جامعة تورنتو عام ١٩٧٦م و ١٩٨١م، كُشف عن سور بُني من الألواح الطينية كان يُحيط بالمستوطنة كلياً[٥٦]. ووجدت داخل السور بعض البيوت التي كانت دائرية الشكل والبعض الآخر مستطيلة بُنيت من الألواح الطينية المتوفرة محلياً[٥٧]. احتوت هذه البيوت خلال المرحلة المبكرة من الاستيطان على صوامع لتخزين الحبوب وفي المراحل اللاحقة تم استبدال هذه الصوامع بجرار غائرة في الأرض استعملت للتخزين[٥٨]. وبصورة تطابق ما وجد في موقع تبه كورا الواقع شرقي مدينة الموصل إذ استعملت بيوت دائرية الشكل من أجل تخزين الحبوب[٥٩]. فضلاً عن ذلك وجدت في حسونة مخازن للحبوب على هيئة أحواض أو جرار كبيرة من الفخار، كانت تدفن في ارض الدار حتى حافاتها[٦٠]. كانت مستوطنة كوت ديجي الواقعة بالقرب من تلال روهري (المصدر الرئيس للصوان الذي تم استغلاله منذ العصر الحجري القديم[٦١]) وعلى الضفة اليمنى من نهر الإندوس مساحتها لا تتجاوز ٢ هكتار. كشفت البعثة التنقيبية فيها عن بقايا لجدار بُني في وقت مبكر من تاريخ المستوطنة ربما كان يحيط بها كلياً. وتوسعت المستوطنة خلال أواخر ثقافة كوت ديجي بمنازل بُنيت من اللبن على ما تبقى من

الجدار[٦٢]. بالإضافة إلى ذلك وجد استمرارية الاستيطان في مواقع جليل بور وهاربا من منطقة البنجاب خلال مرحلة نشوء المدن إذ تُبين الودائع الفخارية المبكرة من المدينتين خطاً واضحاً للتطور من أنماط الثقافات السابقة إلى ثقافة كوت ديجي[٦٣]. وقد أُرِخت ثقافة كوت ديجي في مدينة هاربا نحو ٢٨٠٠ – ٢٦٠٠ ق.م[٦٤]. فتشير بقايا هذه المرحلة التي غطت التل AB والتل E المجاور وتمتد إلى التل ET إلى التوسع الكبير للمدينة بمساحتها نحو ٢٥ هكتار خلال المرحلة المبكرة من حضارة وادي السند[٦٥]. قُسمت المدينة إلى تلين هما التل AB (القلعة) الذي يحتوي على المنشآت المركزية والتل E (المدينة السفلى) وأحيط كل واحد منهما بسور كبير بُني من اللبن وتقع داخل هذه الجدران تكون المدينة التي بدأت تتطور إلى مركزاً حضارياً إذ وجدت بعض التطورات في الهندسة المعمارية من خلال شوارع موجهة بصورة منتظمة وبيوت مستطيلة الشكل تحتوي في وسطها على فناءات وتوزع الغرف حولها[٦٦]. ويُعد هذا النوع من البيوت الشرقية النموذجية التي وجدت في مواقع ثقافة حسونة من حضارة وادي الرافدين أيضاً[٦٧]. وتُشير الأنقاض الحرفية التي وجدت بمراحل صناعية مختلفة إلى أن مدينة هاربا كانت مركزاً صناعياً أيضاً[٦٨]. تماثل المنتجات الفخارية من ثقافة كوت ديجي ما وجد من فخار دور الوركاء إذ صُنعت على دولاب الخزاف ولُونت باللون الأحمر والبرتقالي والرمادي، هذه تحمل بعض أوجه الشبه مع فخار ثقافة أمري – نال، على الرغم من الأشكال المختلفة للكثير من الأوعية[٦٩]. فقد تضمنت زخرفتها عدداً من العناصر المتميزة مثل الزخارف النباتية ونمط الأسماك فضلاً عن زخرفة الإله المقرن (شخص يرتدي غطاء رأس بقرون جاموس يُعتقد أنه الإله شيفا الأولي الذي صور على تماثيل حضارة وادي السند)[٧٠]. وتضمنت منتجات ثقافة كوت – ديجي حاويات مياه ذات فتحات عنق كبيرة بأسطح محززة وأوعية ذات أربع آذان تماثل ما وجد من طور الوركاء الوسيط[٧١]. وهناك نوع آخر من فخار ثقافة كوت ديجي هو الفخار الرطب الذي كان شائعاً في أغلب مستوطنات مرحلة نشوء المدن، ربما كان يستعمل من أجل تخزين المياه[٧٢]. أُنجز المظهر المتميز لهذا الفخار الرطب بواسطة وضع طبقة سميكة من الطين ثم تزال جزئياً بقطعة قماش مبللة فتترك سطحاً خشناً ونقوش القماش[٧٣].

ثالثاً– ثقافة دامب سادات (Damb–Sadaat) أو (فخار كويتا):

إن منتجات بعض المواقع في منطقة وزيرستان ووادي كويتا (شمال ووسط بلوشستان) الذي تقع

فيه مستوطنة دامب سادات تختلف عن المنتجات الفخارية التي في المناطق التابعة إلى ثقافة كوت ديجي[٧٤]. لدرجة يكون التعامل معها على أنها ثقافة مختلفة عن الثقافات السابقة عُرفت باسم (ثقافة دامب سادات)[٧٥]. فضلاً عن مواقع سهل كاتشي مثل مهرغاره (المراحل السادسة والسابعة) وناوشارو (المرحلة الأولى) اللذان يقعان ضمن المنطقة العامة لمواقع ثقافة كوت ديجي السابقة إلا أن منتجاتها تشبه منتجات ثقافة دامب سادات بشكل كبير[٧٦]. على الرغم من ذلك يحتوي فخار مواقع ثقافة دامب سادات (موندي غاك، دامب سادات، وفائز محمد) على أوجه شبه مع فخار ثقافة أمري – نال وثقافة كوت– ديجي منها وجود الفخار الرطب[٧٧] وذخيرته المتميزة من الزخارف الحيوانية مثل الثيران والأسماك والماعز والطيور، والنباتية مثل أوراق التين الهندي وسعف النخيل، والهندسية مثل الخطوط المتقاربة مستقيمة أو منحنية بخط واحد أو خطوط متعددة تفصل المزهريات إلى لوحات متعددة[٧٨]. كما وجدت أطباق رُسمَ عليها زخرفة صليب في عدد من مستوطنات حضارة وادي السند المبكرة والتي يُعتقد أن مصدرها زخرفة الصليب المالطي من حضارة وادي الرافدين لأنها لم تكن شائعة في ثقافات وادي السند مثلما كانت في الشرق الأدنى[٧٩]. هناك امتداد ثقافي من الشرق الأدنى حتى وادي السند عبر الهضبة الإيرانية لتقنية صنع الفخار على عجلة الخزاف وتعريضه على أفران ذات درجة حرارة عالية من أجل الحصول على منتجات فخارية باللون الرمادي وجدت في مستوطنة فائز محمد[٨٠]. ووجد فخار يماثله تقنياً في موقع تبه كورا من عصر العبيد والفخار الرمادي المصقول من موقع كراي ريش في منطقة سنجار غرب دجلة من عصر ما بعد العبيد[٨١] فضلاً عن أنه يشبه فخار أمير الرمادي الذي وجد في مواقع شرق إيران[٨٢]، فربما وصلت تقنية انتاج الفخار باللون الرمادي إلى حضارة وادي السند من الشرق الأدنى. وتتشابه زخارف منتجات مستوطنة فائز محمد مع زخارف منتجات منطقة كويتا التي كانت بأشكال نباتية وحيوانية وهندسية مثل أنماط تعرجات ومربعات متداخلة[٨٣]، ووجد ما يماثل النمط الأخير في مناطق بكتريا وتركمانستان الشمال–غربي حضارة وادي السند فضلاً عن ذلك الأختام المنبسطة والتماثيل البشرية والحيوانية التي اكتشفت في مستوطنة فائز محمد تماثل ما وُجد في المستوطنتين دامب سادات وموندي غاك[٨٤].

رابعاً– ثقافة سوثي – سيسوال (Sothi – Siswal):

شهدت المرحلة المبكرة من حضارة وادي السند انتشار المستوطنات على الجزء الشرقي من نهر ساراسواتي، وامتدت حتى منطقة السان بين نهري الجانج – يامونا في الجنوب – الشرقي من حضارة وادي السند[٨٥]. فإن التركيز الرئيسي لمواقع ثقافة سوثي – سيسوال كان في وادي نهر دريشادفاتي الذي تضمن موقعي سوثي وسيسوال[٨٦] فضلاً عن المستوطنة الكبيرة راكهي كارهي (Rakhigarhi) التي تبعد نحو ١٥٠كم شمال– غرب دلهي وبالقرب من نهر ساراسواتي. اكتشفتها هيئة المسح الأثري الهندية خلال المسوحات الميدانية التي أجريت في عام ١٩٦٣م، وتم تنقيبها من قبل أمارندرا ناث (Amarendra Nath) في عام ١٩٩٧– ٢٠٠٠م، فكُشفَ عن مستوطنة تعود إلى المرحلة المبكرة من حضارة وادي السند[٨٧]. بُنيت فيها البيوت بعضها من اللبن والبعض الآخر من الآجر وكانت موجهة في اتجاهات رئيسة، واحتوت بعض هذه البيوت على مجاري للصرف الصحي متصلة بمجاري الصرف العامة في المدينة التي أُنشئت من الآجر[٨٨].

كشفت تنقيبات ب.ب لال وب.ك.ثابار (B.B.Lal and B.K.Thapar) عام ١٩٦١م إلى ١٩٧٥م في بلدة كاليبنغان الواقعة على الضفة الغربية من نهر ساراسواتي شمالي راجستان عن بقايا تعود إلى مراحل السند المبكرة والناضجة[٨٩] ، يحيط بها سور كبير بُني من اللبن مع بوابة تقع في الجانب الشمالي من السور[٩٠]. بُنيت بيوت فيها من اللبن وكانت تتألف من فناء في الوسط وتقع حولها الغرف بصورة مطابقة لما وجد في ثقافة حسونة[٩١]. استعمل الآجر في بلدة كاليبنغان لبناء مجاري الصرف الصحي العامة فقط[٩٢].

ومن المراكز الحضارية الأخرى التابعة إلى مرحلة السند المبكرة مستوطنة باناوالي (Banawali) الواقعة في منطقة هاريانا وبالقرب من نهر ساراسواتي. تم تنقيبها من قبل هيئة المسح الأثري الهندية برئاسة ر.س. بشت (R.S.Bisht) في عام ١٩٨٨م[٩٣].أحاط بهذه المدينة سور بُني من الآجر، ربما أُنشئ من أجل الدفاع عن المدينة من الفيضانات وذلك لوجود أدلة على انهياره بسبب الأضرار الناجمة عن المياه[٩٤]. و بنيت بيوت في المستوطنة من الطوب بنوعيه الطيني والمفخور. وكشفت التنقيبات في مدينة باناوالي عن منتجات فخارية مشابهة لفخار كاليبنغان الرمادي عجلة الخزاف، فضلاً عن وسلع فخارية مطلية بصبغة حمراء مصنوعة يدوياً وتفتقر إلى الزخرفة[٩٥].

تضمن فخار ثقافة سوثي – سيسوال منتجات مصقولة وملونة باللون الأحمر الباهت ومنتجات

فخارية خشنة صُنعت على عجلة الخزاف ورُسمت زخارفها باللون الأسود[٩٦]. تميزت هذه الزخارف بالأشكال الحيوانية والنباتية مثل ورق التين الهندي، سعف النخيل، الأسماك، الماعز، الأبقار، الطيور والسلاحف كذلك الزخارف الهندسية مثل الأشرطة الافقية والمنحنية، حلقات بيضوية محاطة بالأشرطة الافقية، خطوط متموجة متقاطعة فيما بينها، مثلثات متشابكة، فضلاً عن زخرفة الإله المقرن[٩٧]. أشكال هذه المنتجات الفخارية محدودة جداً إذ تشمل أواني ومزهريات ذات حافات مقلوبة وأوعية محدبة الجانبين وقواعد دائرية لأوعية فخارية[٩٨] تماثل حاملات الأواني من الآثار الخاصة بعصر فجر السلالات في حضارة وادي الرافدين[٩٩]. كما وجد فخار ثقافة سوثي- سيسوال في مواقع السند المبكرة الواقعة في منطقة نهر ساراسواتي إذ أستمر في الاستعمال به إلى جانب فخار منطقة السند خلال المرحلة الناضجة وحتى المرحلة المتأخرة من حضارة وادي السند[١٠٠].

الاقتصاد:

إن أدلة الحياة الاقتصادية في مستوطنات حضارة وادي السند المبكرة نادرة. إذ توضح عظام الحيوانات المستكشفة في المواقع التي تم تنقيبها صورة مشابهة عن الحياة الاقتصادية لسكان حضارة وادي الرافدين فقد أستمر تدجين الماشية والأغنام والماعز بانتظام (خصوصاً الماشية التي تشكل نحو ٩٠% من الحيوانات في معظم المستوطنات) إلى جانب جاموس الماء في بعض مستوطنات حوضا الإندوس وساراسواتي[١٠١]، وتشمل الحيوانات البرية التي كانت يصطادها السكان في الحضارتين الطيور والأسماك وغيرها[١٠٢]. فضلاً عن وجد في عدد من مستوطنات مرحلة السند المبكرة مثل أمري ورحمن دهري مواد نباتية مثل القمح الذي كان المحصول الرئيسي فيها بالإضافة إلى الشعير الذي أصبح أكثر أهمية في العصور اللاحقة[١٠٣].

اكتشف في مستوطنة كاليبنغان حقل محروث في اتجاهين يُعتقد أنه أعد من أجل جمع محصولين زراعيين نضجا في أوقات مختلفة من السنة. وهي ممارسة ما تزال تستعمل في شمال الهند وباكستان[١٠٤]. وربما كانت تجر المحراث الثيران المستعملة لجر العربات أيضاً فقد عُرف ذلك من النماذج الطينية التي تم أكتشافها في مواقع جليل بور وباناوالي فضلاً عن آثار شقوق عجلات العربة في شوارع مدينة هاربا[١٠٥]. وبخصوص الري يبدو أن المستوطنة الصغيرة فانغ (Phang) الواقعة في تلال كيرثار استعملت

سدود لهذا الغرض[١٠٦]، فضلاً عن مستوطنات حوضا الإندوس وساراسواتي التي عمَلت على الاستفادة من مصادر المياه الأخرى لزراعة المحاصيل مثل الينابيع والتيارات الجبلية[١٠٧].

المدافن:

إن أدلة ممارسات الدفن في مستوطنات مرحلة حضارة السند المبكرة محدودة جداً. فقد وجد مقبرتان في موقع ناغوادا (Nagwada) (شمالي كجرات) تحتوي على حُفر وضع فيها سلع القبر إلا أنها لم تحتوي على عظام بشرية[١٠٨]. وعُثر في قرية مهرغاره على مقبرة من المرحلة نفسها تحتوي على تسعة عشر قبراً بصناديق صغيرة بنيت من اللبن وجد فيها بقايا عظام تعود لأشخاص بالغين وأطفال رضع وضعوا على ظهورهم موجهين نحو الشرق والغرب[١٠٩] ، بصورة مشابهة لما وجد في مدينة أريدو خلال دور العبيد[١١٠]. كما وجدت في مهرغاره مقابر لأطفال دفنوا في جرار فخارية كبيرة تطابق ما وجد في قرية تبه كورا من دور العبيد[١١١]. لكن هذه المقابر تختلف عن مقابر وادي الرافدين من خلال عدم احتوائها على سلع قبور على الرغم من انتشال ثلاث خرز وختم صورَ عليه شكل لنسر واقف على ثعبان[١١٢]. وقد عُدَ هذا النسر في معتقدات الدين الهندوسي لاحقاً أنه يمثل الطائر كارودا (Caruda) ملك الطيور ومركبة الإله فشنو[١١٣]. كما وجد ما يماثل مقابر مهرغاره في منطقة نال (جنوبي بلوشستان) إذ احتوت على صناديق بُنيت من اللبن ولا يوجد فيها سوى الفخار والحُلي[١١٤]. في المقابل وجدت في موقع بيرانو غونداي (Periano Ghundai) (شمالي باكستان) اربع مدافن مماثلة لمقابر مهرغاره تحتوي على صناديق طينية فيها جثث محروقة أحداها في وعاء فخاري[١١٥].

الاستنتاج:

تُعد حضارة وادي السند إحدى المراكز الحضرية الثلاثة التي شهدت التطور المستقل للأنشطة الحضرية والعمرانية، بالرغم من امتلاكها سمات وخصائص متشابهة مع وادي الرافدين. وكان لموقعها الجغرافي أثر مهم في نشوء حضارة مترامية الأطراف بمساحة تفوق مساحة حضارتي وادي الرافدين ووادي النيل. فقد نشئت حضارة وادي السند على أرض سهلية خصبة مشابهة لأرض وادي الرافدين، واعتمدت الزراعة فيها على أنهار الإندوس وساراسواتي وروافدهما بواسطة استعمال افضل وسائل الري من أجل أرواء أكبر مساحة ممكنة من الأراضي الزراعية وهي متشابهة لحد بعيد مع أساليب الري في حضارة وادي الرافدين بسبب تضائل الأمطار في كلتا الحضارتين. ونظراً إلى السمات المتشابهة بين الحضارتين عدها بعض علماء الآثار بأنها

كانت مستعمرة تجارية لسكان حضارة وادي الرافدين إلا أن التنقيبات التي أُجريت في مدينتي موهنجودارو وهاربا في عام ١٩٢٠م أثبتت عكس ذلك، إذ لفت انتباه الآثاريين تخطيط المدن الشبكي وطبيعة تنظيم البيوت وحماماتها وكيفية تسيير نظام الصرف الصحي فيهما.

انتشرت في أواخر الألف الرابع وبداية الألف الثالث المدن الزراعية على ضفاف الأنهار ومصباتها حيث كانت الحاضنة الحضارية والحضرية التي ظهرت في جنوب حوض الرافدين وحوض الإندوس. فقد أنشئت المستوطنات الدائمية في مناطق جديدة من السهول الغرينية عبر انتقال بعض المجاميع من الأراضي المرتفعة إليها، ولابد أن يُشير هذا التحول في الحضارتين إلى التنمية بين سكان الأراضي المرتفعة من تقنية ومعرفة وثقة في استغلال المناطق البيئية الجديدة التي يوفرها حوضا الرافدين والإندوس والتغلب على محدوديتها. و من الأمور الأخرى التي ساعدة على نمو المدن في حضارتي وادي الرافدين ووادي السند الحفاظ على المياه من أجل زيادة الإنتاج الزراعي، مما دفع سكان المستوطنات إلى بناء سدود بسيطة لحجر أو تحويل المياه المتدفقة خلال فصل الربيع عند ذوبان الثلوج في المرتفعات من أجل إرواء الحقول الزراعية.

الهوامش:

١- فرانكفورت، هـ، وآخرون، ما قبل الفلسفة الإنسان في مغامرته الفكرية الأولى، ت: جبر إبراهيم جبرا ، (بيروت، ١٩٨٠)، ص. ١٤٩.

2- Smith, L. Monica, "The Archaeology of south Asia cities", JAR, vol. 14, no.2, (New York, 2006), pp. 99-103.;

باقر، طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج:١، (لندن ، ٢٠٠٩)، ص، ٥٧.

3- Possehl, Gregory.L, The Indus Civilization A Contemporary Perspective, (New York, 2003),p.35.

4- Reddy, Krishna, Indian History, (Delhi, 2007), p. A 25.

٥- بوستغيت، نيكولاس، حضارة العراق وآثاره (تاريخ مصور)، ت: سمير عبد الرحيم الجلبي ، (بغداد ، ١٩٩١)،ص ص ١٤-١٥.

6- Burke, Farkhunda and Others, "Disparities of agricultural productivity in Balochistan A GIS perspective", PGR, vo.60,no.1, (2005), p.29.

٧- ميلارت، جيمس، أقدم الحضارات في الشرق الأدنى، ترجمة محمد طلب، (دمشق، ١٩٩٠)، ص ١٦٣.؛

Reddy, Krishna, Indian History, ..., p. A 35.

8- McIntosh, Jane, The ancient Indus Valley : new perspectives, (California, 2008),p.67.

9- Stone, Elizabeth C, "The development of cities in ancient Mesopotamia": in Jack M. Sasson and Others (eds), Civilizations of The Ancient Near East, vol.1, (New Your, 1995), pp. 236-237.

10- McIntosh, Jane, The ancient Indus Valley..., p. 67.

١١- باقر، طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ...،ج:١، ص ٢٨٩.

12- Mughal, Rafique, "Archaeological field research in Pakistan since independence: An overview", Bulletin of The Deccan College Post-Graduate and Research Institute, vol. 49, (Pune, 1990), p. 264.

13- Smith, L. Monica, "The Archaeology of South Asia Cities, JAR,...p. 101.

14- McIntosh, Jane, The ancient Indus Valley..., p. 67.

15- Dani, A.H., Thapar, B.K, The Indus Civilization, (Paris, 1981),p.287.

16- Bhattacharya, B, Urban Development in India Since Pre-Historic Time, (Delhi, 2006), p. 1.

١٧- بوستغيت، نيكولاس، حضارة العراق وآثاره ...، ص ص ١٣-١٤.

18- Possehl, Gregory L, The Indus Civilization: A Contemporary ..., p. 40.

19- Ratnagar, Shereen, "Material used in the Bronze Age", in E.Olijdam and R.H.Spoor (eds), Intercultural Relations Between South and South-West Asia, Studies in Commemoration of E.C.L. During Caspers 1934 – 1996, (Oxford, 2008), p. 56.

20- Rao, B.V, History of Asia (From Early Times To A.D. 2000), (New Delhi, 2001),p.260.

٢١- لويد، سيتن، فن الشرق الأدنى القديم، ت: محمد درويش، (بغداد،٢٠١١)، ص.١٠٣.

22- McIntosh, Jane, The ancient Indus Valley,..., p. 67.

23- Clift, Peter. C, A brief history of the Indus river, GSLSP, vol. 195, no.1, (2002),p.237.

24- Mughal, Rafique, "Archaeological field research in Pakistan..., p. 263.

25- Shaffer, J.G and Thapar, B.K, "Pre-Indus and early Indus cultures of Pakistan and India", in Dani, A.H, and Massion, V.N (eds), History of Civilization of Central Asia, vol.1, The Dawn of Civilization: Earliest Times to 700 B.C, (Paris: 1992), pp. 241, 259.

26- Venkatrajam, G., Indian History and Culture(From the Earliest Times to 1206 A.D), (Hyderabad, 2005),p.77.

27- Possehl, Gregory L, The Indus Civilization: A Contemporary ..., p. 40.

28- Shaffer, J.G and Thapar, B.K, "Pre-Indus and Early Indus ...,Vol.1, p.243.

29- Smith, L. Monica, "The Archaeology of south Asia cities, JAR...,pp.98, 104.

30- Mughal, Rafique, "Archaeological field research in Pakistan..., p. 264.

31- Venkatrajam, G, Indian History..., p. 77.

32- Wheeler, Mortimer, The Cambridge History of India. Supplementary Volume . The Indus Civilization, (Cambridge, 1953),p.14.

33- Ahmed, Mukhtar, Ancient Pakistan an Archaeological History "The Material Culture", Vo.3, (Lahor, 2014),p.55.

34- Shaffer, J.G and Thapar, B.K, "Pre-Indus and Early Indus ...,Vol.1, p.255.

35- Possehl, Gregory L, The Indus Civilization: A Contemporary ..., p. 40.

٣٦- باقر، طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج:١،... ص. ٢٤٣.

37- Singh, Upinder, A History of Ancient and Early Medieval India (From the Stone Age to the 12th Century), (Delhi, 2008),p.141.

38- Shaffer, J.G and Thapar, B.K, "Pre-Indus and Early Indus ...,Vol.1, p.256.

39- Wheeler, Mortimer, The Cambridge History of India,...p.14.

40- Possehl, Gregory L, The Indus Civilization: A Contemporary ..., p. 40.

٤١- باقر، طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة،.ج:١...، ص ٢٥٥؛

Singh, Upinder, A History of Ancient and Early ..., p. 141.

42- Reddy, Krishna, Indian History ..., p. A 37.

43- McIntosh, Jane, The ancient Indus Valley ..., p. 74.

44- Gaur, A.S, and Others, "Ancient shell industry at Bet Dwarka island", CSJ, vol.89, no.6, (Karnataka, 2005), p.941.

45- Gaur, A.S and Vora, K.H, "Ancient shorelines of Gujarat, India, during the Indus civilization (Late Mid-Holocene): A study based on Archaeological evidences", CSJ, vol. 77, no. 1, (Karnataka, 1999), p. 181.

46- McIntosh, Jane, The ancient Indus Valley …, p. 74.

47- Possehl, Gregory L, The Indus Civilization: A Contemporary …, p. 40.

48- Ahmed, Mukhtar, Ancient Pakistan vol.2…, p.431.

49- Shirvalkar, P and Shinde, V, "Early farming culture of Saurashtra: their contribution to the development of regional Harappan culture", Paper Presented in the International Seminar on the First Farmers in Global Perspective, India, 18-20 January, 2006, (Lucknow, 2008), p. 223.

50- Mughal, Rafique, Archaeological Field Research in Pakistan…, p. 265.

51- Bhattacharya, B, Urban Development in India Since …,p. 20.

52- Reddy, Krishna, Indian History, …, p. A 34.

53- McIntosh, Jane, The ancient Indus Valley ,…, p.74.

54- Ahmed, Mukhtar, Ancient Pakistan vol: 2,…, p.433.

55- Ibid, p. 442.

56- Maisels, C.K., Early Civilizations of the Old World, (London, 1999),p.216.

57- Coningham, Robin and Young, Ruth, The Archaeology of South Asia: From The Indus To Asoka (6500 – 200 B.C), (Cambridge, 2015), p. 164.

58- Ibid, p. 165.

59- Bertman, Stephen, Handbook to Life in Ancient Mesopotamia, (Oxford, 2003), p. 33.

٦٠- باقر، طه، مقدمة في تاريخ الحضارات، ج:١...، ص ٢٣٣.

61- Ratnagar, Shereen, Material Used in The Bronze Age,…p.56.

62- Shaffer, J.G and Thapar, B.K, "Pre-Indus and Early Indus …,Vol.1, p.276.

63- Jennings, Justin, Killing Civilization: A Reassessment Early Urbanism and Its Consequences, (University of New Mexico Press, 2016), p. 150.

64- Singh, Upinder, A History of Ancient and Early …, p. 143.

65- Ahmed, Mukhtar, Ancient Pakistan vol. 2,…, p.445.

66- Jennings, Justin, Killing Civilization: A Reassessment Early Urbanism and Its Consequences, …, p. 150.

٦٧- ساغز، هاري، عظمة بابل، ت: خالد أسعد عيسى و أحمد غسان سبانو، (دمشق، ٢٠١١)، ص ٢٠.

68- Kenoyer, J.M., "Bead technologies at Harappa 3300 – 1900 B.C". in (eds),C.Jarrige and V.Lefevre , A Comparative Summary. In South Asia Archaeology 2001, (Paris, 2005), p. 157.

69- Wheeler, Mortimer, The Cambridge History of India,...p.21.

70- Singh, Upinder, A History of Ancient and Early ..., pp. 142-143.

٧١- باقر، طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج:١ ...، ص. ٢٦١.

72- Shaffer, J.G and Thapar, B.K, "Pre-Indus and Early Indus ...,Vol.1, p.245.

73- McIntosh, Jane, The ancient Indus Valley,..., p.75.

74- Luniya, B.N, Evolution of Indian Culture, (Agra, 1951),p.21.

75- Higham, Charles, Encyclopedia of Ancient Asian Civilization, (New York, 2004), p.90.

76- Maisels, Charles Keith, Early Civilizations ...,p.199.

77- Luniya, B.N, Evolution of Indian Culture, ...p.21.

78- Shaffer, J.G and Thapar, B.K, "Pre-Indus and Early Indus...,Vol.1, pp. 242,245.

79- Starr, Richard F, Indus Valley Painted Pottery: A Comparative Study of the Designs on the Painted Wares of the Harappa Cutlrue, (London, 1941), p. 56.;

ميلارت، جيمس، أقدم الحضارات في الشرق الأدنى ...، ص ١٥٩.

80- McIntosh, Jane, The ancient Indus Valley..., p.75.

٨١- لويد، سيتون، آثار بلاد الرافدين من العصر الحجري القديم حتى الإحتلال الفارسي، ترجمة: سامي سعيد الأحمد، (بغداد، ١٩٩٨٠)، ص.٩٣.

82- Shaffer, J.G and Thapar, B.K, "Pre-Indus and Early Indus ...,Vol.1, p.252.

83- Ibid, p. 245.

84- McIntosh, Jane, The ancient Indus Valley ..., p.75.

85- Higham, Charles, Encyclopedia of Ancient Asian Civilization...,p.36.

86- Agnihotri, V.K, Indian History,...p. A17.

٨٧- للمزيد حول التنقيبات أنظر:

Menon, Kasturi Gupta (ed) , Indian Archaeology 1997-1998 A Review, (Delhi, 2003), pp. 55-69.

88- Nath, Amarendra and Garge, Tejas, "Site catchment analysis of the Harappan site of Rakhigarhi , district Hissar, Harayana", Man and Environment, ISPQS, vol.39 , no.1, (Delhi, 2014), p. 33.

89- Dales, George F and Kenoyer, Jonathan Mark, Excavations at Mohenjo Daro, Pakistan: The Pottery, (University of Pennsylvania, 1986), p. 8.

90- Higham, Charles, Encyclopedia of Ancient Asian Civilization...,p.34.

91- Thapar, B.K, "Kalibangan: A Harappan Metropolis beyond the Indus valley" ,EM, vol. 17, no. 2, (Penn Museum, 1975), p. 20.

92- Reddy, Krishna, Indian History..., p.A38.

93- Ibid, p.A40.

94- McIntosh, Jane, The ancient Indus Valley..., p.77.

95- Joshi, M.C (ed), Indian Archaeology 1987 – 1988, (Delhi, 1993), pp.22, 26.

96- Garge, Tejas, "Sothi – Siswal ceramic assemblage: A reappraisal", AAJ, vol. 2, (Pune, 2010), p. 20.

97- Shaffer, J.G and Thapar, B.K, "Pre-Indus and Early Indus ...,Vol.1, p.259.; Bhattacharya, D.K, An Outline of Indian Pre History,...p.157.

98- Shaffer, J.G and Thapar, B.K, "Pre-Indus and Early Indus ...,Vol.1, p.259.

٩٩- باقر، طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج١،...ص. ٢٨٥.

100- Garge, Tejas, "Sothi – Siswal Ceramic Assemblage ...,AAJ, p. 22.

101- Venkatrajam, G Indian History..., pp. 78-79.

102- Rao, B.V, History of Asia (From Early Times...,P.259.

103- Raychaudhuri, S.P and Roy, Mira, Agriculture in Ancient India,...pp. 27-28.

104- Vijay, Muni, Agriculture at Kalibangan – evidences and excavations, AJMS, vol.3, no.12, (Delhi, 2015), p. 66.

105- Ibid . p.68. ; Reddy, Krishna, Indian History...,p.A46.

106- McIntosh, Jane, The ancient Indus Valley ..., p.71.

107- Raychaudhuri, S.P and Roy, Mira, Agriculture in Ancient India,...p.45.

108- Agnihotri, V.K, Indian History,...p.A15.

109- Shaffer, J.G and Thapar, B.K, "Pre-Indus and Early Indus ...,Vol.1, p.246.

١١٠- باقر، طه ، مقدمة في تاريخ الحضارات ،ج:١... ، ص ٢٥٤.

111- Singh, Upinder, A History of Ancient and Early ..., p. 126.

112- Wheeler, Mortimer, The Cambridge History of India,...p.15.

113- Chandra, Suresh, Encyclopedia of Hindu Gods and Goddesses, (Delhi, 2001), p. 100.

114- Ahmed, Mukhtar, Ancient Pakistan vol.3,...p. 104.

115- Shaffer, J.G and Thapar, B.K, Pre-Indus and Early Indus ...,Vol.1, p . 253.